إذا كنتَ وحيداً جداً

جلال الأحمدي *

إذا كنت وحيداً
جداً!
ولم تحدث أمام عينيك تماماً
غابة،
لم يبقر صدركَ من الدّاخل
ثورٌ هائج
ويركض على سجادتكَ
مبعثراً عظام قفصكَ...
من غرفةٍ إلى أخرى،
لم يصادفك زلالٌ جائعٌ في طريق
عودته،
لم ينتبه لوجودكَ حطّاب،
ولم يعطكَ الفأس
شكل خلاصك،
لم يخرج قبالتكَ
مقعد خشبي فارغٌ
ومسعور
يعمل أطرافه المعدنية في جسدك
ثمّ يتركك تنزف
على حافّة نهر،
لم تتنازع على طحالك
ضباعٌ نصف آلية
تعمل لصالح الموت بالمجّان،
لم ينتزع دبٌ سيّئ الحظّ
أحشاءك الفاسدة
ويموت قبلك،
لم ينحرف عن وجهته قطارٌ
يسير منذ ألف عام بين فكّي كتابٍ
محملاً بالأفكار الشّريرة
ومؤخرات النّساء البدينات
ويسحل جمجمتك،
لم تغمض عينيك
وأنت تشاهد الحشرات
وهي تسرق منك أجزاء صغيرة نتنة
. تراها لأوّل مرة .
تحملها فوق رأسها
وبين ذراعيها
وكأنّها تستردّ منك أشياء كانت
ملكها بالأصل.
إذا كنتَ وحيداً
جداً!
ولم تكتب قصيدة جيدة
تتحدّث بها عن رجلٍ جداً
وحيد،
لم تلوّث قصبتك بتبغ رديء
ولم تبتهج
بالعذاب الذي استطعت أن تمنحه
لنفسك،
لم تسعلْ اسمكَ
ديدان،
وحلزونات رخوة،
تُشبهكَ
على ورق مراحيض مجهزة
خصيصاً لذلك،
لم تفتتح كلماتك بأنياب مسمومة
ومخالب
ملطّخة بأصوات السّاسة،
لم تقدّم جنازة أو اثنتين
من السّطر الأول
ولم تدسّ لغماً في كلّ فاصلة،
لم تفقد من هشاشتكَ
دمعةً
مع كلّ زنزانة تفتحها
بينك وبين غرائزك،
لم تلصق أذنك إلى قدمك
لتنصت لبكاء الخيول المنهكة
بين جلدك وعظامك،
لم تحضرك كلمة مصقولة بعناية
ترغب أن تحتفظ بها لنفسك،
لم تحاول أن تمسكها بيديك
العاقّتين
وتدخلها
بالمعول
والسّكين
إلى قلبك،
لم تعدّ منها حساءً فاخراً
للغيلان التي تعمل سراً
تحت صمتك،
لم تختنق بعظامها الخشنة
وأنت تحاول أن تتذوق
لكنتها الغامضة،
لم تضرب رأسك ألف مرة
عرض الحائط
وأنت تنهار بكل لباقتك
أمام سطرٍ فارغ
تحاول أنْ تكمله بقطعة من لحمك
النّيئ،
لم يلدغك ثعبان مجروح
نسيته متعمداً
في الجملة التي تتحدث بها
عن العائلة.
إذا كنتَ وحيداً
جداً
ولم تستطع أن تكمل
ما بدأتُه أنا!
ولم تتركني أُنهي هذه الكلمات
على طريقتي!
أقترح عليك أن تقترب منّي
ببطء
وأن تسمع ما سأهمس به بعناية
أرجوك...
أرجوك...
خذ هذا الألم معك
وغادر.

* شاعر يمني

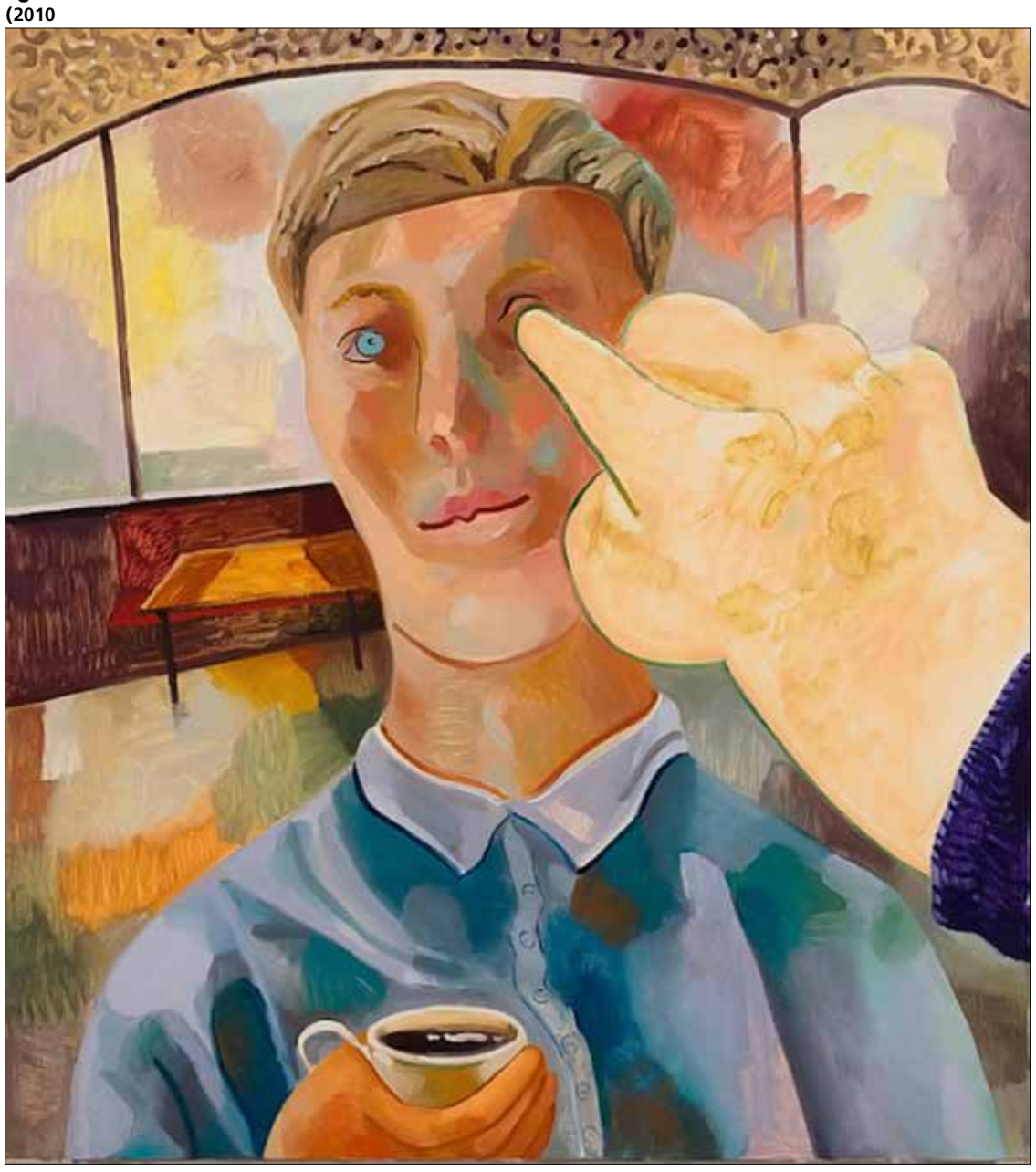

Poke
للاميركية دانا شوتز (زيت على كانفاس ـ 2010)

حكايتان عن بيتها وعنها

ريهام سعيد *

فوتوجرافي

وحدها تستحق الكتابة عنها...
صغيرتي التي لا أملّ الحكي عن تفاصيلها، هل يكفي العمر لحكي كل ما يدور بيننا؟
أتمنى لو أمتلك منبراً في وسط المدينة أحكي فيه يومياتنا معاً، وأدعو مصوّري العالم إلى إجازة مفتوحة في زوايا منزلي، سأخبرهم أن هذه هي الفائدة الحقيقية للصور... أن نحكي ما لا يسعنا الوقت لحكيه ببضع لقطات؛ لقطات يمكنها وحدها أن تخبر الكثير.

لقطة:

ألفّها على بطني كالوشاح وأهز نفسي كالبندول في محاولة بائسة لحثها على الخلود للنوم. تستمر في التقلص والتلوّي بين يديّ ثم تهدأ فجأة وتنكمش قرب صدري، مغمضة العينين ومكورة مثل أرنب في الشتاء؛ أتسحّب بها على أطراف الأصابع لأجلس على الأرض وأستند برأسي إلى الحائط مبحلقة في السقف، منهكة، وسعيدة لأنها سكنت أخيراً.
أتخيل مصوّراً محترفًا يتدلّى من الثريا ليلتقط لنا صورة من الأعلى تبحلق فيها عيناي الواسعتان المحدقتان بهالتين سوداوين إلى العدسة، ويظهر أسفلهما جسدي المنكمش على الأرض، يُحيط بجسد أصغر لطفلة قررت أخيراً الاختباء.

لقطة:

أبكي من ظلم لا يشعر به غيري. أجلس أمامها وأحكي لها كمراهقة متخبطة تحكي لقطتها وتنتظر رداً، أقول كل شيء وأنهار باكية فتنظر إلي بتأثر قبل أن تُمثّل الضحك في محاولة لإضحاكي، ثم تمد يديها للمرة الأولى نحوي كي أحملها. خلف الأريكة القريبة يختبئ المصور الذي يلتقط ابتسامتي وسط الدموع وأنا أنظر لجسدها الذي يشبّ من كرسيها الصغير نحوي، جذعي المائل نحو جذعها المائل يكوّن معها قلباً آدمياً في الهواء.

لقطة:

أطعمها للمرة الأولى جزراً مهروساً في طبق ملوّن بملعقة ضئيلة. أقوم بإضحاكها فتفتح فمها الدقيق، أغطس فيه بالملعقة سريعًا، ما إن تدرك الخدعة حتى تنظر لي نظرة تمزج الذهول والفضول والغرابة والصدمة ببقايا الضحك، نظرة لا يمكن وصفها بالفعل. خلف رقبتي وعلى كتفي تحديداً، تجلس كاميرا المصور لتلتقط هذا الوجه الصغير المدهش، وجهها الذي يُخلد وحده قداسة البدايات بنضارتها وطزاجتها وبراءتها، والحياة التي تتفجر من جوانبها كمياه ساخنة خلقت شقوقها في كوب زجاجي بارد وقررت الانطلاق.

لقطة:

طاقة من الحب تتفجر ما إن يمس جلدها جسدي.
عارية، أضم جسدها العاري وأتمشى، وحدنا في المنزل نمارس البدائية، كتلتان بشريتان قررتا الامتزاج والعودة للأصول. واقتناص طاقات الحب التي تتفجر ما إن تتماس جلودنا دون حائل.
أدندن تراتيل وأدور في حلقات كالدراويش، أحتضنها وأنا منهكة تماماً ثم أقوم لأرقص فجأة ما إن تصدر صوتاً جديداً بغنجها المعهود.
أجلس على السيراميك البارد لأهدأ من حرارة الجو، ألقمها صدري. ويسرح بي الخيال وأنا أراها تكبر أمام عينيّ، تكبر... وأفكر أنه بعد قليل سيتخيلها غيري عارية، يتخيل ضمتها له، وقدر الحب الذي سيتفجر ما إن يمس جسدها جسده. يرتسم على وجهي مزيج من الابتسام والخوف، تلتقطه عدسة نسائية تعرف كيف تظهر المشهد إنسانياً بحق، وغير فاضح بالمرة. أوصي أن تُبعثَر الصور في الطرقات وعلى عتبات البيوت، تُلصق على أعمدة الإنارة وواجهات المحال.
يمر أحدهم ذات مرة فيدقق في كل لقطة قبل أن يتمتم في سره:
«من كان يدري أن عالَمًا آخر يدور خلف حيطان البيوت!».

واوا!!

أنفي يمتلئ برائحة تشبه رائحة الصدأ لا أعرف لها مصدراً، أحوم في الشقة كدودة منفعلة! لا يمكنني تحمل الرائحة ولا أجد مصدرها أبداً... أجلس على الأرض وأستند إلى الأريكة في أسى، لا بد أن لهذه الرائحة مغزى.
أنفث أمام حاسبي توتراً وقلقاً مجهولي المصدر كالرائحة تماماً، ينقبض صدري ولا ينطلق لساني. أرغب في البكاء ولا أعرف السبب!
تستيقظ الصغيرة فأهرع للّحاق ببكائها. أقوم من جلستي، بطرف عيني ألمح بقعة على السجادة. أحاول التركيز فيها قبل أن أغادر، بقعة حمراء بغيضة تلوث محل جلستي بالضبط. أُدير قميصي لأجده ملوثاً بالنزف، تدمع عيني ويمتلئ أنفي برائحة الصدأ التي لم أكن أعلم مصدرها، وأراقب خطين أحمرين على جانبي فخذيّ، أشعر بشيء يشبه الانتهاك، أستكمل طريقي نحو الصغيرة.
أتركها مع اللعب وأذهب لإحضار المنظفات، إزالة بقعة دم من سجادة بلون فاتح هي مأساة حقيقية. أخلط المنظفات وأحاول دعك البقعة وتتساقط دموعي في صمت، الدموع التي لم تساعد على محو أثر البقعة المخجلة. أقرر أن آخذ حماماً دافئاً كي أهدأ قليلاً. آخذ ابنتي بألعابها وأُجلسها على مفرش بلاستيكي ملون على مسافة مني حتى لا تفزع لاختفائي.
تحت قطرات المياه المتساقطة على رأسي المتصدع وعيني المنتفختين. أسد أذني لوهلة، أختار أن أعمل للعالم «ميوت»... أغمض عيني... يغطي صوت المياه المكتوم على كل المحيطات لوهلة، قبل أن أتذكر الصغيرة التي تراقبني من مسافة.
أفتح عينيّ لأجدها تنظر إليّ بفزع وتشير ناحيتي قائلة: «ماما... واوا!»
أنظر إلى محل إصبعها الصغير الذي يشير إلى القطرات الحمراء المتساقطة مني... أنظر بتمعن في عينيها وأبتسم لها...
نعم يا حبيبتي... واوا... واوا ستلازم كلتينا إلى الأبد!.

* قاصة مصرية